السلوك التربوي للطريقة العيساوية وأثره في المجتمع

د. يوسف إدريس البزاز ـ قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية التربية .
جامعة درنـــة . فرع القبة

الملخص :

لقد اهتم البحث بعرض أصول الطريقة العيساوية، وأثـــرها التربوي في المجتمع ، كذلك دورها في المحافظة على القيم الدينية داخل المجتمع ، وقد تناول البحث الطريقة العيساوية ، كونها الطريقة الأكثر انتشاراً في ليبيا أنموذجاً للدراسة ، وتطـــرّق البحث لمؤسس الطريقة من حيث المولد ، والوفاة، والنسب، ومكانته العلمية بين علماء عصره، وشيوخه الذين تلقى عليهم العلوم ، ومكانته الصوفية في المغرب العربي على وجه العموم ، وليبيا على وجه الخصوص، كما سلط الباحث الضوء على مراحل دخول الطريقة العيساوية إلى ليبيا، وتلقي العلماء والمريدين لها بالقبول ، وتفاعلهم معها ، كذلك تطـــرّق البحث إلى الطريقة وأصولها ، ومدى قربها، أو بعدها من الأصول العامة للتصوف الإسلامي ، فضلاً على ذلك تعرّض الباحث للمنهج التربوي للطريقة العيساوية وأثـــره على سلوك الفـــرد من ناحية ، ومن ناحية أخرى على سلوك المجتمع ، وكذلك أهـــمّ المخالفات التي شابت الطريقة من بعض المنتسبين إليها ومعالجتها، وأخيراً خرج البحث بنتائج ، يمكن الاعتماد عليها للمهتمين بهذا الجانب.

Research Summary:

The research focused on presenting the origins of the Issawiya method, its educational impact on Libyan society, as well as its role in preserving the religious identity of the Libyan state: belief, jurisprudence and behavior.

The research dealt with the Issawiya method in particular, as it is the most widespread method in Libya as a model for the study, In particular.

The researcher also shed light on the stages of the entry of the Issawiya tariqa into Libya, the acceptance by scholars and followers of it, and their interaction with it.

In addition, the researcher exposed the educational approach of the Issawiya method and its impact on the behavior of the individual on the one hand and on the other hand on the behavior of society, as well as the most important violations that marred the method from some of its affiliates and their treatment.

Finally, the research came out with reliable results and recommendations for those interested in this aspect.

المـقـدمـة:

الحمـــــد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

مما لا شك فيه أن التّصوف الإسلامي دعوة ورسالة نابعة من أصول الرسالة المحمدية ، بكل دقائقها وتفاصيلها، عقيدة وشريعة، والتي تستهدف الناس كافة في أرجاء الدنيا دون استثناء ، وذلك لأنه ثمرة عمل العبد بأحكام الشريعة الاعتقادية منها والفقيهة بكل صورها ، لذلك كان التصوف الإسلامي ولا يزال يمثل الحياة الدينية الروحية في أرقى صورها.

والطريقة العيساوية كطريقة صوفية لا تخرج عن الإطار السابق ولا تزيد عن كونها طريقاً مرسوماً بدقة متناهية وفق ضوابط الكتاب والسنة ، ينجذب إليها العصاة والتائهون عن طريق الحق والراغبون في العودة إلى حضرة الحق سبحانه ، لكي يقوّموا اعوجاجهم ، ويصلحوا ما فسد من أمرهم ، وينيروا من خلاله ظلام قلوبهم، فهي بهذا الوصف الدقيق بدايتها مجاهدة النفس ، ومخالفتها، وكســـر مرادها ، وإماتة هواها، ونهايتها الولاية والعرفان والرجوع إلى رحاب الحق.

ولما كان الأمر كذلك ، فإن ما تطرحه الطريقة العيساوية من سلوك ، وتلزم به أتباعها من ضرورة مجاهدة النفس ، والتحقق بمعاني التوبة ، والرضا، والصبر، والصدق ، والمحبة، والصفاء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، لا يعتبر خصوصية لها دون غيرها ، بل هو واجبٌ على كل مسلم ؛ لأنه أساس من أسس العقيدة والشريعة في وقت واحد ، وإذا سلطنا الضوء على أي حكم من أحكام العقيدة أو الشريعة بدون الأساس الأخلاقي يصبح صورة لا روح فيها.

أهمية البحث :

تكمن أهمية الموضوع في النقاط الآتيـــــة :

يناقش عرض الطريقة العيساوي ، والكشف عن مؤسسها، وأركانها ، ومعرفة منهجها التربوي ، والكشف عن أهم آثار تلك المناهج في المجتمع المسلم ، ومعالجة ما ينسب للطريقة من مخالفات .

مشكلة البحث :

يطرح البحث مجموعة من التساؤلات تسعى الدراسة للإجابة عنها ، وهي:

أولاً ـ لمن تنسب الطريقة العيساوية ؟ وما مفهومها؟

ثانياً ـ ما الدوافع وراء انتشارها في المجتمع الليبي؟

ثالثاً ـ ما المنهج التربوي لهذه الطريقة ، وأثره في المجتمع الليبي؟
رابعاً ـ ما يؤخذ على الطريقة من مخالفات وما كيفية معالجتها؟

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى بيان الآتي :
أولاً : التعريف بالطريقة ومؤسسها .
ثانياً : الوقوف على منهجها وغاياتها.
ثالثاً: معرفة أثرها الأخلاقي على الفرد والمجتمع.

أسباب اختيار البحث :

يرجع أسباب اختيار الموضوع إلى الآتي :
أولاً: الكشف عن الطريقة العيساوية ، ومنهجها التربوي.
ثانياً: معرفة مدى تأثير الطريقة في المجتمع الليبي ، كونها أكثر الطرق انتشاراً.
ثالثاً : تسليط الضوء على دورها في المحافظة على الهوية الدينية للبلاد.
رابعاً : الوقوف على المخالفات الشائعة ومعالجتها.

الدراسات السابقة :

أما عن الدّارسات السابقة في هذا الموضوع ، فلم يقع تحت يدي دارسة مستقلة حول عنوان البحث ، سوى ما كتب مفرقاً في كتب التصوف وتراجم الصوفية وغيرها، وقد بحثت من خلال شبكة المعلومات حول الموضوع ، وهذا لا ينفي قرب الموضوع من بعض الدراسات المهتمة بالطرق الأخرى.

منهج البحث :

أما فيما يخص منهج البحث ، فقد اعتمد البحث في عرض إطاره النظري ودراساته السابقة على المنهج الوصفي التحليلي.

خطة البحث :

أما خطة البحث ، فقد جاءت في مقدمة ، وتمهيد، ومبحثان ، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع ، المقدمة: وتشتمل على أسباب الاختيار، ومشكلات البحث، والأهمية ، والأهداف، والدراسات السابقة ، ومنهج البحث وخطته ، ثم المبحث الأول: الطريقة العيساوية ، ويتضمن التعريف بمؤسس الطريقة، وحياته العلمية والصوفية، ويتضمن كذلك الطريقة، ومدى قربها وبعدها من الأصول العامة للتصوف الإسلامي، وأثرها في المجتمع الليبي وفي المبحث الثاني : مفهوم التربية عند العيساوية ، وفيه يتطرق الباحث إلى المنهج التربـــوي المعتمد في الطريقة ، وكذلك التّعرف على الوسائل

السلوكية في الطريقة ، وكذلك تسليط الضوء على أهم المخالفات ومعرفة أسبابها، والخاتمة : وفيها خلاصة ما توصل إليه الباحث، وأهم التوصيات.

تمهيد :

مما لا شك فيه أن التدين عند أرباب الطريقة الصوفية لا يزيد عن كونه عملية سلوكية بجميع المقاييس ، تعتمد على التجربة والتطبيق والممارسة الدائمة غير المنقطعة ، ولا تلتفت إلى الجانب النظري أو الفلسفي المعقد ، لذلك لم يعد التصوف يجذب الباحثين والمستشرقين أو النقاد فحسب ، بل أصبح يجذب عامة الناس لما يعمقه من أبعاد روحية ، كان لها الأثر في تكوين شخصية المسلم ، وسلامة منهجه والوصل به بعد ذلك إلى التدين الحقيقي ، الذي يسعى إليه الصادقون

والتصوف الإسلامي هو في حقيقته دعـــوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق وتطبيقها على أرض الواقع ، بكل ما تحمله من أبعاد روحية دقيقة دون نقص ، بل هو بعد ذلك زيادة في الطاعات ، وتنافس في القربات، يؤكده ما ورد في قوله- تعالى - : **[وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ]** [لقمان :15] ، وتصدقه شـــواهد الواقع ، من خلال تتبع سير أعلام الصوفية ، الذين كانوا على شاكلة شيخوهم الأوائل ، رسوخاً في الدّين، وعمقاً في التجربة والتطبيق، وإذا كان التصوف يدور حول تلك الحقائق الربانية ، فهو بلا شك يدعو إلى تحقيق المبادئ الإيجابية، التي تساعد في تطور الفرد والمجتمع ، من خلال ما يطرحه التصوف من نظريات أخلاقية ، تلقي بظلالها على النفس البشرية، لتنقلها من ظلمات النفس إلى نور هداها ، وذلك لأنه منهج الصالحين وطريق الصادقين ، ومرفأ الأمان، وهو أقرب طريق إلى الله سبحانه ، لما يحمله من جد واجتهاد نابع من قوة إيمان وسعة علم ، وكثرة عمل، بطريق مرسوم وفق ضوابط الكتاب والسنة، ولهذا السبب كانت الطرق الصوفية تحظى بقبول عامة الناس ؛ لما وجدوه فيها من مناهج تُحقّق تطلعات النفس الروحية من : محبة ، وصفاء، وصدق وإخلاص، ورقي ، وغير ذلك من معانٍ روحية ، غابت عند بعض الفقهاء والمتكلمين، بل وكثير من الدعاة والجماعات الإسلامية.

المبحث الأول ـ الطريقة العيساوية والمجتمع:

أولاً ـ مؤسس الطريقة: تنسب الطريقة العيساوية على ما تواتر من ثقات شيوخها، للشيخ محمّد بن عيسى بن عامر السباعي الفهـــدي المولد سنة (877هـ)، والمتوفي سنة(933ه) ـ السفياني الأصل والنشأة ، المكناسي المولد والوفاة ، ويرجع نسب الشـــيخ المؤسس على أرجح الأقوال إلى الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء -

رضي الله عنهما-، وقد تواترت الأخبار عن هذه الشخصية الصوفية ، كونه رجل صالح مشهور بالولاية والعلم ، والدعوة إلى الله سبحانه ، كما أنه معلم روحي عرف بالصلاح والمجاهدة النفسية ، والسلوك العرفاني، ولين الجانب، متحلياً بالجلال والجمال ، ولم تظهر عليه خيانة قط ، لا في حال ولا في المقال ، مهيب النظر، كريم النفس، كثير الأدب ، جميل المعاشرة، صاحب محبة وحنان، حلو الكلام كأن الله عجن طين جسده من سائر المحاسن ، حتى لقب بالشيخ الكامل عند شيوخ عصره: لصلاح أمره، واستقامة أحواله، وطيب مصدره، وعذوبة منهله، ولهذا السبب دون غيره لم تمضِ مائة عام على تأسيس طريقته ، حتى انتشرت في جمع غفير من الدول الإفريقية والعربية والإسلامية ، مثل : ليبيا، وتشاد، ومصر، وتونس، وغيرها كثير، وعرفت بعد ذلك كمدارس تربوية وروحية، يلجأ إليها كل طالب ، ويعتمد عليها كل سالك ، بغية الوصول إليه سبحانه[1] ، ولعل الدافع الأساسي والسبب الرئيسي وراء انتشار الطريقة العيساوية ، هو سمو مكانتها الروحية ، ومنهجها التربوي الفريد، وقدرة شيوخها بعد توفيق الله - تعالى - ومدده على سلوك الطريق، فكم غيرت من عاص ، وكم فتحت من قلوب، وكم تاب على يد شيوخها من ضال ، وكم قومت من اعوجاج ، في ضجيج الماديات، وتزاحم اللذات وانتشار المنهيات ، وتكالب أهل الدنيا، وتطاول أهل الباطل.

ثانياً ـ مكانته العلمية : مما لا شك فيه أن الجانب العلمي كان له الأثر البالغ في حياة المؤسس ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن حياة الشيخ كانت محطات علمية من نعومة أظفاره إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وهذه المحطات العلمية الدقيقة ، هي التي رسمت لنا شخصية الشيخ فيما بعد، والتي ستظهر معنا من خلال البحث عند تتبع طريقته ومنهجه التربوي ، وتبدأ رحلة طلب العلم عند الشيخ من سن مبكرة ، حيث رحل إلى مدينة فاس ؛ لمكانتها العلمية المرموقة آنذاك، ولكثرة الحفاظ والعلماء بها، ففيها حفظ القرآن الكريم دراية ورواية ، وتعلم اللغة العربية وآدابها وما يتعلق بها، والحديث الشريف ، والفقه وأصوله ، والتفسير، وتمكن من العلوم النقلية والعقلية ، ثم تصدر للتدريس في القرويين بفاس ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة مكناس ، وتفرغ لخدمة شيخه الحارثي (ت 905 ه) والدراسة عليه ، ثم عاد إلى مكناس ، وتصدر للتدريس في جامعها الكبير، وأسس الزاوية سنة (917 ه)، ولازلت الزاوية بالقرب من خزانة الكتب عامرة إلى يومنا هذا بالفقراء ، والطلبة والذاكرين ورواد الطريقة، وعند المسجد تجد حجراً منقوشاً عليه هنا كان الشيخ سيدى محمد بن عيسى يدرس العلم[2]

ثالثاً ــ نشأته الصوفية : حقاً إن النظرة إلى السلوك الصوفي يجب أن تكون نظرة

أصيلة وعميقة ؛ لأن العلم وحده لا يكفى ، ولا يصل بصاحبه منفرداً إلى مراده ، بل لابد من شيء يتوغّل إلى أعماق النفس البشرية ، وثنايا القلب ، ليضبط الصدق، والإخلاص، والإيمان، ويحقق كمال الأخلاق بمحددات كالتي تحكم الظاهــر تماماً، فلابد من علم السلوك ومعاملة الباطن، كي يترقى الإنسان إلى مقامات الترقي[3]، ولهذا السبب أدرك أهل التصوف أهمية الأساس الأخلاقي للدين، فجعلوا اهتمامهم موجهاً له ، وذهبوا إلى أن أي علم من العلوم لا يقترن بالخشية من الله والمعرفة به، فلا جدوى منه ولا خير فيه ، فما أكثر ما تجد في العلم ما يسهل عليك تحصيله ، أما الأخلاق فتحصيلها عسير، لأنها تكون ثمرة ممارسة شاقة ، وصراع بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء ، ليلزمها جادة الصواب[4].

وبناءً على ما سبق فإنه لا كمال للجانب العلمي عند الشيخ بن عيسى دون الاهتمام بالجانب الروحي ، والتحصيل الوجداني ، فهو بلا ريب ثمرة كل مجهود ، وغاية كل طالب ، ومقصد كل صادق، يريد الوصول إلى رحاب الله سبحانه ورضوانه ، لذلك كان الشيخ يصر على الاهتمام بهذا الجانب دون غيره، والتفرغ له بالكلية، ويظهر هذا الاهتمام الروحي بوضوح عند رجوع الشيخ إلى المعلم الكبير أبو العباس أحمد الحارثي ، وكان الأخير من كبار أهل زمانه بلا منازع ، ليقوم بتربيته وصقله على خطى الإمام محمد بن سليمان الجزولي (ت 870 هـ) ، ومن ثم السير به في طريق القوم، وقد أخذ الشيخ ابن عيسى الخرقة الصوفية على الحارثي ، وعاهده على الصحبة، والسلوك في سلك الطريقة ، وعدم العدول عنها تحقيقا وتطبيقاً ، فأخذ عنه، وقرأ عليه ، كتب القوم، وتربى على يديه بالطريقة الجزولية المحمدية إلى أن فتح الله عليه، وعندما قرب أجل الحارثي، أمره بالذهاب إلى مدينة مراكش، والأخذ على الشيخ عبد العزيز التباع (ت 914هـ)، والأخير كان خليفة الإمام الجزولي والوراث لمقامه ، كما أخذ عنه الأوراد والأحزاب، وبعد ذلك أسس طريقته ، التي نسبت له فيما بعد، وشرع في نشرها على نهج من سبقه[5].

رابعاً ـ دخول الطريقة العيساوية إلى ليبيا : لم يكن غريباً أن يهرب الناس من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد، ومن الشك إلى اليقين، ومن الاعتقادات الباطلة، التي صنعها الدجل والخرافة، إلى نور الحقيقة، وتلبية الداعي إلى الله سبحانه، ولم تكن ليبيا بمنأى عما ذكرناه سابقاً، فقد خيم الجهل، والفقر، والبطالة على كثير من قُراها، ولم يكن للدّين تلك الأهمية في ضبط السلوك، واستعادة الحقوق، وإنارة الطريق أمام الباحثين عن الحق، فقد كان الولاء للقبيلة دون غيرها ، وقد سادت العديد من الأعراف الظالمة،

التي غيبت الدّين بقصد أو عن غير قصد، وفى ظل هذا الجو المشحون، والفراغ الروحي ، كان من الطبيعي أن تتسلل الطريقة إلى قلوب الناس، لتنقلهم من الجهل والخرافة، وسطوة الباطل إلى سماحة الدّين، وقد انقسم المؤرخون حول دخول الطريقة العيساوية إلى ليبيا إلى فريقين:

الفريـــــق الأول ـ "يرى أن قدوم الطريقة العيساوية من بلاد المغرب إلى ليبيا كان عن طريق الشيخ امحمد بن محمد بن عامر السباعي ، وهو من أســـرة الشيخ ابن عيسى، ويرجّح أن يكون مجيئه إلى مدينه مصراته ، ما بين عامي (1839م-1840م) ، وهو في طريقه لإداء فريضة الحج، وبعد عودته من رحلته الشريفة تمسّـك به عدد من سكان مدينة مصراته ، وطلبوا منه تأسيس زاوية عيساوية بها ، وقبل الشيخ امحمد الدعوة ، ولكنه أجّل ذلك إلى حين عودته من مدينة مكناس، التي قصدها لإحضار إجازة لنشر الطريقة العيساوية، وكان تاريخ الإجازة سنة (1262هـ - 1845م) "[6] بعدها عاد الشيخ امحمد إلى مدينة مصراته ، وافتتح بها أول زاوية عيساوية ومسجداً سُمي فيما بعد بمسجد الشيخ امحمد ، وهو موجود الآن في مصراته بهذا الاسم، واعتبرت هذه الزاوية هي الزاوية الأم للطريقة ، ومنها انتشرت الطريقة في شرق وغرب وجنوب البلاد، وقد دفن الشيخ امحمد بها ، وله بداخلها ضريح ومقام مشهور في مدينة مصراته ، وقد توارث أبناءه وأحفاده من بعده مشيخة الطريقة إلى يومنا هذا.

الفريق الثاني ـ يرى أن : " الطريقة دخلت على يد الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودي (ت1869م)، وقد كان المسعودي عالم وفقيه من فقهاء طرابلس ، تميزت حياته بالعلم الغزير والأدب الرفيع ، وبشخصيته القوية وطريقته الصوفية، وقد تصدر للتدريس بعد أن نهل من معين العلم على يد شيوخه داخل البلاد وخارجها، وألف مجموعة من الكتب، بلغ في ما عرف منها أربع عشرة مصنفاً في علوم شتى : كالفقه، والتاريخ، والرقائق"[7]، والأرجح أن المسعودي هو أول من جاء بالطريقة من المغرب إلى ليبيا، غير أن انتشارها في باقي المدن الليبية كان عن طريق السباعي ، ولكل من المسعودي والسباعي سند في الطريقة العيساوية ، يعود إلى الشيخ المؤسس، ويعتبر كل منهما مســـؤول عن إعطاء الطريقة العيساوية في ليبيا، وتتبع لهما جميع الزوايا المنتشرة في البلاد.

خامساً ـ الطريقـــة العيساويـــة : يجمع المؤرخون على أن نشأة الطرق الصوفية بدأت في القرن السادس الهجري ، ولا يعنى ذلك بداية التصوف العملي ، والذى أسس على التجربة الفردية ، فالأخير ظهر في نهاية القرن الثاني ، وبداية القرن الثالث الهجري، ثم أصبح عبارة عن جملة مراسم تعنى : بالحياة الروحية المعمول بها في إطار

جماعي ، ومنها بدأت تنشأ تلك الطرق الصوفية، وفق ضوابط دينية مشددة[8]. ولعل العامل السياسي كان من أهـــم العوامل التي كانت من وراء نشأه التصوف الإسلامي بصفة عامة والطرق الصوفية بصفة خاصة ، والمتمثل في الفتنة الداخلية التي بدأت مع استشهاد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضى الله عنه- ، وقيام الحرب الأهلية بين أنصار على ومعاوية رضى الله عنهم ، واستشعار بعض الصحابة خطورة هذا الجـــو المشحون بالخلافات والاضطرابات السياسية المعقدة ، فآثروا أن يقفوا بين الفرق المتنازعة موقف الحياد أو الابتعاد ، ولعلهم فعلوا ذلك إيثاراً للسلامة وابتعاداً عن الفتنة وحباً في حياة العزلة[9]، وعلى هذا الأساس ظهرت الطرق الصوفية، والتي تعنى السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله- تعالى- ، وتطبيقها بدقة متناهية، فهي بهذا المعنى الدقيق سفر أو انقطاع إلى الله - عز وجل- ، والسالك أو المريد هو المسافر ليس لوحده بل بمعية شيخه ، الذى سلك الطريق قبله، وعلى السالك أن يسلكها مرحلة بعد مرحلة، ولابد من اجتيازها بعد توفيقه سبحانه[10]. وبناءً على ما سبق ذكره يمكننا القول: "أن الطريقة الصوفية عبارة عن مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية المشروعـــة ، التي لا رخصة فيها، فإن تتبع الرخص سبب للتنفيس والراحة المقتضبة الإرسال والسراح، والتنفيس في مشاق التكليف يعطي الراحة في الطريق، والراحة تعطي الوقفة ومقتضى الطريق إلى الحق استمرار المشي عليه بلا وقفة وفترة"[11]، والطريقة العيساوية كغيرها من الطرق لا تخرج عن الإطار السابق لمفهوم الطريقة، فهي تعتمد في أصولها على متابعة الكتاب والسنة، وتعتبر هذه الثوابت كما سنوضح لاحقاً هي الأساس المعتمد عليه لدى شيخ الطريقة، وعلى الكتاب والسنة شيد الشيخ طريقته ، وطلب من مريدي طريقته الوقوف عندها أمراً ونهياً، فهي مفتاح الطريق، وأول خطواته المرسومة، وبها يتحقق السلوك من عدمه، وترجع الطريقة العيساوية العلية في أصولها العامة، إلى الطريقة الجزولية الأحمدية، المنسوبة للشيخ محمد الجزولي صاحب كتاب دلائل الخـــيرات ، ومنها إلى الطريقة الشاذلية ، المنسوبة للشيخ أبى الحسن الشاذلي (ت565هـ)، وذلك لأن الشيخ محمد بن عيسى منذ صغره انخرط ضمن زمرة المتصوفة الجازوليين، الذي لقنوه مبادئ طريقتهم المستوحاة من الشاذلية كما ذكرنا سابقاً مع بعض الإضافات التي كانت تلائم ذلك العصر وظروفه الخاصة من ناحية ، ومن ناحية أخرى تلائم ظروف المريدين وتطلعاتهم المادية والروحية ، وذلك لأن مدار الطريقة الصوفية هو التحقق بكمال الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحيث تظهر نورانية هذه الحقيقة في جميع أعضاء المريد ، ولا يتسنى ذلك إلا بملازمة طاعة

الله، وابتغاء مرضاه، ومتابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء ، والتحقق بكمال الإسلام، ولا يكون ذلك إلا بملازمة المريد جميع أحكام الشريعة مع إظهار العجز، والافتقار، والذل، والانكسار، والتسليم من حيث الظاهر والباطن، ولا يحصل كمال الإسلام إلا بمجاهدة النفس؛ لتتبع السنة النبوية وأن تعمل بالعزيمة وتجتنب الرخصة[12] ، وإذا كان الأمر كذلك فإن حقيقة الصوفي فقيه عمل بعلمه لا غير، فأورثه الله - تعالى - بعلمه الاطلاع على دقائق الشريعة وأسرارها ، حتى صار أحدهم مجتهداً في الطريق إلى الله – تعالى- ، كما هو شأن الأئمة المجتهدين، ثم ما اختص به الصوفية عن غيرهم هو علمهم بالطريق الموصلة إلى الكتاب والسنة على حد وصف الشعراني (ت973هـ)[13] ، ولذلك نجد الجنيد (ت 298 هـ) يؤكد على ما سبق ذكره حين قال : "ما يصل أحد إلى الله إلا بالله ، والسبيل الى الوصول متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - "[14]، وهذا ما نجده كذلك عند الرفاعي (ت578 هـ) حين قال للمنتسبين إلى طريقته : "شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل ، وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وأحكام العمل"[15].

وبناءً على ما سبق ذكره فإن مفهوم الطريقة يكمن في الاعتقاد الصحيح ، الذى يبنى على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة سنة الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء، والصادقين، وعلى سالك الطريق أن يتمسك بالكتب والسنة، وأن يعمل بهما أمراً ونهياً، وأصلاً وفرعاً، ويجعلهما جناحيه يطير بهما الى الطريق الموصل إلى الله تعالى ، ثم يصدق في الاجتهاد حتى يجد الهداية على حدّ قول الجيلاني(ت 561هـــ)[16] ، وهذا معنى قول عبد السلام الأسمر للمنتسبين إليه : "عليكم بالتوحيد وحفظ العلوم واتباع السنة والقرآن ، وعليكم بتعليم أولادكم وأزوجكم عقائد الإيمان ، فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف"[17].

ولا يختلف مفهوم الطريقة عند الشيخ ابن عيسى عمن سبقه من شيوخ الطريقة ، فقد فصّل تلك المعاني السامية وجعلها حدوداً لطريقته لا يمكن تجاوزها حين قال: "طريقتنا هذه لا تدخل في قلب قاس ، ولا في جسم عاص ، ولا في عقل جاهل ، ولا تدرك بالقياس ، ولا هي خارجة عن الكتاب والسنة ، بل هي حكمة علية ، وموهبة لدنية على السنة والنية ، ومساقة على أثر الأنبياء والأولياء مع دوام ظاهر صاحبها على الاستقامة، فمن عمل بهذا فهو من حزبنا ومحسوب علينا ، ومنسوب إلينا ، ومن لم يكن مشهور ظاهر أمره على هذا ، فنحن براء منه وهو بريء منا"[18]

لذلك يجع الصوفية على اختلاف مشاربهم أن المريد لا ينال حقيقة هذا الأمر حتى حتي

يسقط الناس من عينه ، فلا يرى في الدارين إلا خالقه سبحانه ؛ وأن يعتقد المريد أنه لا قدرة لأحد كائناً من كان على ضره أو نفعه إلا بإذن الله – تعالى- ، وتسقط نفسه عن قلبه، فلا يبالى بأي حال غير حال يصل به إلى الله سبحانه[19]، والطريقة بهذا المفهوم الدقيق تحقق للمريد مفهوم العبودية لله في أبهى صورها، كونها رتبة ، وما أعظمها من رتبة، لها أهمية وأثراً في نفوس المقبلين على الله – تعالى- ، وذلك لأن المنهاج الإسلامي في مجموعه من : عقيدة، وعبادة، وتشريع، وأخلاق، ليس إلا جلباباً يرتديه الإنسان ، ليعلن بذلك عن عبوديته التامة لله - عز وجل- ، أي: أن الصلة الأساسية الأولى التي تربط المريد بهذا المنهج هي أنه عبد مملوك لمشرعه وواضعه وهذا عين قوله- تعالى - : **[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ]** [الذاريات:56]. أي: ليخضعوا صاغرين إلى هذا النظام الذى اخترته لهم وارتضيته لحياتهم ، وليس المقصود بالعبادة كما يتوهّم بعضهم أنها أداء شعائر من : صلاة، وزكاة، وصيام، وحج ، ثم هو بعد ذلك يكون الإنسان حراً يفكر كما يحب ويعثو بالحياة كما يشاء[20]

ونخلص بعد ذلك إلى حقيقة غاية في الأهمية، وهي أن الطريقة لا تزيد عن كونها متابعة العلم بالعمل، وأن السير في طريق القوم لا يتحقق إلا بمتابعة الكتاب والسنة، وتحقيق تلك المفاهيم في الحياة قولاً وعملاً، حينها فقط نستطيع المضي في الطريق ومواصلة الرحلة تحقيقاً لتلك الأهداف السامية.

سادساً ــ أثر الطريقة في المجتمع الليبي : من المسلمات الطبيعية أنه ليس المقصود في الإسلام أن يتجمّل المسلم بالمظاهر، وأن يهتم بظواهـــر الشعائر الدينية دون الغوص في الأعماق، إنما المطلوب منه أن يتجمّل في باطنه، وأن يصلح فساد قلبه قبل كل شيء، فإذا خلص القلب من: الحقد، والحسد، والغيبة، والنميمة، وسائر الأمراض القلبية، فإنه بلا شك يتطهر من الداخل ، وتنعكس تلك الطهارة القلبية بعد ذلك على ظاهره ، فالطهارة في الإسلام هدف أخلاقي قبل كل شيء ، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر الصّـــلاة في الإسلام هدفها الأخلاقي والأساسي أن تنهي المسلم عن الفحشاء والمنكر، فإذا تحقّق هذا النهي، تحقق القرب من الله سبحانه ، ونال العبد مطلبه ، ومجاهدة النفس عند الصوفية لا تزيد عن كونها مراقبة للنفس ، ومقاومتها لكل فعل رديء يفسد عليها علاقتها بربها وعلاقتها بالمجتمع، ونحن بلا ريب نحتاج لهذه المعاني السامية، والأخلاق الرفيعة، خصوصاً في مجتمعاتنا المعاصرة، ولو أن كل واحد منا حاسب نفسه عما قدم لذاته وللمجتمع، وحاول أن يصحّح مسار أفعاله وأعماله لكان في ذلك خير كثير له وللمجتمع الذي يعيش فيه.

ولعل ما سبقت الإشارة إليه عند الصوفية يعد ضرورة حتمية ، فالرضا ، والزهد ، ومجاهدة النفس ، والتوبة من أهم أصول التربية الإسلامية عموماً، بغض النظر عن الفهم العميق للتربية الصوفية، وهذا في الأصل واجب كل مسلم تجاه دينه ومجتمعه، ولا يتصور بأي حال من الأحوال أن يبتعد المسلم عن هذه الأخلاق، لأن مكارم الأخلاق أساس الدين عقيدة وشريعة، وأن أي خلل في الأخلاق يجعل من العبادة صوراً وأشكالاً غاب عنها الجوهر والمعنى، ولما كانت الطرق الصوفية تمثل الجانب العملي للإسلام، وما فيه من دعـــوة للتحلي بمكارم الأخلاق ، والتي تعتبر هي الركيزة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي ، فإن المجتمع الليبي قد وجد في الطرق الصوفية نظاماً متكاملاً لإصلاح الفرد والمجتمع، من خلال تزكية النفس ونشر الحب ، والرحمة، والعفو، والإخاء، بين أفراد المجتمع ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الطرق الصوفية في ليبيا تمثل جانباً مهماً في تاريخها القديم والحديث ؛ إذ كانت الزوايا الصوفية مساجد عبادة ، ومراكز تعليم، ومثابات للجهاد، وتجمع للمجاهدين في عهود الاستعمار، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عمق التربية الروحية، التي التمسها المسلمون في ليبيا عند الصوفية، والتي تقوم على نظم وضوابط تحقق غاية الدين، وتصل بالسالك إلى أعلى مراتب الإيمان، فينعكس ذلك على ذاته، ومن ثم على من يعيشون في محيطه، فضلاً على ذلك فالطرق الصوفية عامة والعيساوية خاصة لم تضع لأتباعها منهجاً يخص الحياة الروحية فقط ، وإنما شملت ما يترتب على تلك المنهاج من تبعات ، كان لها دور فعال في تكوين شخصية السالك، مما يضيف أهمية الطريقة في تفاعلها مع المجتمع ، ونتيجةً لذلك الدور التربوي للطريقة العيساوية فقد عرف الليبيون معنى الوسطية في الإسلام بكل ما تحمله من معاني تحقق الدّعوة إلى الله سبحانه دون إفراط أو تفريط ، وهذا الطرح الفريد لمفهوم الطريقة عند الصوفية كان له دور ريادي في إصلاح المنظومة الدينية في المجتمع ، وعدم تقبل التطرف بجميع صوره.

والتصوف الإسلامي بصفة عامة والطريقة العيساوية بصفة خاصة لا تتعارض مع حياة المجتمع إذا كان هم المسلم هو الصعود إلى الكمال الأخلاقي والسمو الروحي، لأن ممارسة الحياة العملية عبادة لا يقل شأنها عن العبادات الأخرى، ولذلك لم تكن الطريقة العيساوية غريبة عن المجتمع، وهي تنادى بهذه المعاني الدقيقة، وتساعد في النهوض بالمجتمع والأمة من خلال ما تطرحه من أفكار وأسس تربوية، تساعد بلا ريب في خلق جيل يتحمل مسؤولياته، ويظهر ذلك بوضوح في تحقيق التآخي والتكافل بين أفراد المجتمع.

والجدير بالذكر في هذا المقام أنه لا يوجد صوفياً على الحقيقة يرى نفسه أعلى من بني جنسه، بل إنه من لوازم النظرة الصوفية أن الناس سواسيةً، وأن الأخـــوة بين أفراد المجتمع المقبلين على الله سبحانه ، تعتبر علاقة تبادل وتآزر وتناصح وتعاون على البر والتقوى، وهذا التعاون يعتبر دافع مهم من دوافع القرب من الله سبحانه والأخوة فيه – تعالى- ، وهذا عند الصوفية وسيلة من وسائل الترقي.

ولا يمكن فهم التصوف على أنه انعزال عن المجتمع فالعزلة عند الصوفية مؤقتة بميقات، وليست دائمة، وهي الأقرب أن تكون استجمام روحي، وممارسة عبادة لغرض القرب من الله سبحانه ليس أكثر، زد على ذلك أن المتفرغ للعبادة لا يخشى على نفسه ما دام قد عزل نفسه عن الناس، حينها يكون قد أوجب على نفسه الزهد ، وإلا فلا حقيقة عنده ، إذا لم يعرض عما سواه سبحانه، ولابد للعبادة منها إذ لا عبادة إلا بمعرفة ، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد ، والزهد كذلك ؛ إذ لا زهد إلا بمعرفة، ولا زهد إلا بعبادة[21]، ولا شك أن ما قدمته الطريقة العيساوية من وسائل وأساليب تحقق العبادة الكاملة والتدين الصحيح، كان له الدور الأكبر والفعال في المحافظة على الهوية الدينية في ليبيا من خلال دعاتها وزواياها المنتشرة في البلاد، فقد كانت هذه الزوايا بمثابة مصحات روحية يلجأ إليها الناس، فكم عالجت بهذه المفاهيم الراقية من أرواح، وكم ربطت من قلوب، وكم دربت من أنفس على العطاء، والحب، والذكر، ونبذ الفرقة والتطرف الديني، والدعوة إلى الوسطية والاعتدال، وكم تزينت مجالسها بالذاكرين، وحفظة القرآن الكريم، وهذ أكثر من أن يحصي ولا يخفي على منصف.

وبعد هذا السرد قد يصح القول : أننا في هذا العصر بالذات في أشد الحاجة إلى التصوف الإسلامي والطرق الصوفية بمنهجها التربوي، نحتاج حقاً لشيخ مربي يعلمنا الحب والعفو والسلام، ويجمعنا على الله سبحانه، ويربط الأرواح بربها، وهذا هو دور الزاوية في المجتمع والطريقة عند روادها والمنتسبين إليها، وذلك لأن شبابنا قد استهوتهم الفتن ، وسيطرت على قلوبهم المغريات، وتكالب عليهم أهل الفساد ، وكذلك تحاول الجماعات المتطرفة أن تستهويهم، وتقدم لهم الإسلام المشوّه القائم على التكفير والتبديع والتفسيق والقتل، وهذا ليس ببعيد عن واقعنا المعاصر.

المبحث الثاني ـ مفهوم التربية عند العيساوية:

أولاً ـ المنهج التربوي للطريقة : من المعلوم أن التربية في مفهومها العام وعاء يحمل مجموعة من الأساليب، والتجارب ، والإجراءات، التي تضبط السلوك وتراعي الأخلاق، وتنشر القيم السامية في المجتمع، ولا يمكن أن تكون هذه الأساليب والتجارب

وليدة اللحظة، وإنما هي تراث أخلاقي ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد، ومن الآباء إلى الأبناء، وبواسطتها تتطور الحضارة، وتتقدم الإنسانية، ولكن لابد أن يكون هذا التقدم مرهون بما تقدمه الأمم من ثقافة وعلوم ومعارف، لا تتعارض مع رسالتها بين الأمم الأخرى، وكذلك لا تتعارض مع مبادئ الإنسانية بجميع مكوناتها ومعتقداتها، حينها فقط نستطيع أن نستوعب تلك التربية الحقيقة، ونعتبرها أنموذجاً فريداً من نوعه لضبط السلوك الإنساني، ومن ثم نعتمد عليها في تقويم اعوجاج الإنسان، ويتحقق بعد ذلك التعايش السلمي بين الإنسان وأخيه الإنسان هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى ينعكس هذا المفهوم على علاقة الإنسان بربه وهذا هو المهم ولعلنا بعد ذلك لا نبالغ إذ قلنا إن هذه التربية تعد ضرورة حتمية، كونها تمثل حقيقة العبادة بكل معانيها وصورها، فلو تمسكنا بشعائر الدين دون تحقيق جوهرها، فإن ذلك بالطبع سيؤدي إلى غياب حقيقة الإيمان في قلوب المتدينين، ويبعدنا بشكل كلي عن جوهر العبادة.

ولهذا السبب دون غيره، فإن التربية الدينية أو الروحية عند الصوفية بشكل عام والطريقة العيساوية بشكل خاص، تدعونا إلى تلازم القلب والجوارح بشكل يحقق المغزى الحقيقي للعبادة، فالصلاة مثلاً لا يكتمل للعبد تأديتها على الوجه المطلوب مالم تعرج به صلاته عن كل ما سوى الله سبحانه ، فالصلاة في المفهوم الصوفي ليست حركات وسكنات وتلاوةٍ فحسب، بل هي ارتقاء ومعراج ذوقي يقف فيها العبد بين يدي مولاه، لكي يحقق المراد منها[22] .

وعلى هذا الأساس وتحقيقاً لهذه الأهداف العظيمة، التي تحقق الكمال الروحي للمسلم، وتصعد به إلى الارتقاء المطلوب منه في الآخرة قبل الدنيا، وضعت الطريقة العيساوية منهجاً تربوياً متكاملاً، يقوم على مرحلتين وجب على سالك طريقهم الاعتماد عليها، والأخذ بها والوقوف عندها وهي على النحو الآتي:

1- مرحلة التخلـــــيّ : وهي أولى محطات السالك عند تحقيق الإرادة والعزم على السير في طريق القوم ، وتكمن هذه المرحلة في التوبة بكل معانيها الدقيقة ، وهذا يظهر بوضوح في كلام الشيخ بن عيسى حين قال: مخاطباً مريد طريقته " وأعلم أيها المريد أن التوبة لا تصح إلا بتسعة أشياء وهي :الحسرة، والندامة، والخشوع، والتواضع، والابتهال، والمداومة على الذكر، والرضا بالقضاء، والشكر على الدوام، وحسن الظن بالموالي"[23].

ولم يكن الشيخ ابن عيسى بعيداً عن المبادئ العامة للتصوف؛ لأن التوبة عند الصوفية جميعهم هي أول منزلة في الطريق الصوفي، وهي كذلك المقام الأول عندهم ،والواجب

على المريد عدم مفارقته، حتى يتحقق منه، وهي في نفس الوقت أساس لما بعدها من المقامات، ولا تصح للعبد من غيرها إرادة، وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا توبة له لا مقام له على حد قول السهروردي (ت 631 هـ)[24]، ولما كانت التوبة هي الركيزة الأساسية عند القوم، والعتبة الأولى في سلم الوصول إلى الله، فإن الهدف الأسمى منها كما هو عند الشيخ ابن عيسى يكمن "في الابتعاد عن كل ما يقطع الارتقاء بالتوبة من الحقد، والحسد، والرياء، والكبر، وحب المحمدة، ولذة الرياسة"[25]، فإذا تحقق المريد من التوبة، فإنه لابد وأن يتخلى كليا عن القواطع من الصفات المذمومة، والطبائع المنبوذة كالرياء، والحسد، والحقد، والسمعة، والخيانة، والكبر، والغش، والخوف من الفقر، وطلب الرياسة، والعداوة، والطمع، والبخل، وكثرة الكلام، والأنس بالخلق، وقلة الرحمة، والغيبة، والنميمة، والكذب وجميع ما يبعدك عنه سبحانه[26]، وهذا ما يخبرنا عنه ابن عيسى مرةً أخرى حين قال: "وأول ما يبتدئ به المريد الصادق، أن يتعلم الأدب، وأن ينتهي عن الكذب، ويأمر بالعروف ثم يفعله، وينهي عن المنكر ثم لا يفعله"[27] وعلى قدر همة المريد وتحمله، يكون قربه وبعده من هذه المرحلة المهمة والمفصلية، فإذا تحقق المريد مما ذكرناه سابقاً وجب عليه الرجوع إلى الأصل الأساسي عند الصوفية وهو الزهد ، فالزهد عندهم قرين التصوف منذ بزوغه ، فلا يذكر التصوف إلا وذكر الزهد بجميع مراتبه وبكافة أحواله، فهو الأصل الذي ينتمي إليه كل صوفي، وهو كذلك المنهل، الذي ورد عليه كل الزهاد قديماً وحديثاً ، ولم يكن الشيخ ابن عيسى بعيداً عن هذه المعاني السامية، فالزهد عنده لا يتعدى عدم الرغبة في الدنيا فحسب ، بل يكمن في "التواضع، والصبر، والقناعة، وترك الطمع، ومصاحبة الورع، والمهم بعد ذلك هو اليأس مما في أيدي الناس والرضا عن الله والتوكل عليه سبحانه"[28]، وهذا عين ما يرمي إليه الشاذلي قبل ذلك فالزهد عند الأخير هو "أصل كل الأعمال وعليه مدار السلوك"[29]. والمهم بعد ذلك أن ترك كل مذموم عند مؤسس الطريقة لابد وأن يكون مقروناً بالمحبة الصادقة والالتزام التام من قبل المتلقي، ومحور هذه المرحلة عند المؤسس يدور حول التقوى وترك الفضول، والجد في عبادة الله سبحانه، ولابد أن يكون ما تقدم مقرون بمتابعة السنة ومخالفة الهوى على حد وصف ابن عيسى[30].

2- مرحلة التحلي : وتأتي هذه المرحلة بعد مشقة ليست باليسيرة، وذلك لأن الأمر يتعلق بصراع قديم بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء، ومحاولة السير بها في طريق الصلاح والفلاح، بما يحقق راحتها في الدنيا والآخرة، وتعتمد هذه المرحلة على التحلي بالصبر، والتواضع، والصمت، والمراقبة والمحاسبة، والخشوع، وترك المنهيات، وعمارة

الأوقات، والقناعة، والأدب، والفتوة، والسخاء، والصدق، والإخلاص، والاستقامة، والمجاهدة، والافتقار إلى الله سبحانه، والتفويض والتسليم، وحسن النية، وسلامة الصدر، وحسن الصحبة، والشفقة على المسلمين، والدعاء والنصيحة لهم[31].

وعند تسليط الضوء أكثر على منهج التربية في الطريقة العيساوية نجدها تسعى إلى تحقيق طمأنينة القلب " وطمأنينة القلب عند كل مفزع من أمور الدين، وقناعة العبد بكل شيء واغتباطه بقسمة ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى في كل شيء، ورضاه منه بأدنى شيء، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير، وكمال التقدير فيها"[32] بل ويصل الأمر بالمريد العيساوي إلى "سرور القلب بمر القضاء، واستقبال الأحكام بالفرح"[33]، زد على ذلك أن تلك التربية الروحية بهذا المفهوم" تخلص المرء من الهموم، وتنتزعه من مخالب الغفلة، وتمحو من قلبه التفكير في القدر، وتحرره من قيد المشقات، لأن صفة الرضا الإنقاذ"[34] ، وصفة الرضا التي يسعى المريد لوصولها تحقق له الاستقرار النفسي، وتحرره من العقد السلبية، التي تعيق مسيرته إلى الله سبحانه.

وإذا كان الأمر كذلك فإن مريد الطريقة العيساوية وفق هذا المنهج الدقيق لا يمكن أن يصل إلى مراده حتى يخرج عن نفسه بكل ما فيها وعن مألوفات حسه، وترك جميع الشهوات بجميع مراتبها وأصنافها، حينها يتحقق له القرب، ويصرفه الله في كون وجوده وعوالمه، وإذا صرفه في كون وجوده وعوالمه صرفه في الكون المطلق، وإذا صرف في الكون المطلق صار أمره بأمر الله تعالى[35].

ولا يتحقق ذلك إلا بمتابعة الرسول - صلى الله وسلم - في جميع أحواله وفق ضوابط الطريق المرسومة على هذا الأساس لأن "الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم - ، واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه"[36].

وبعد هذا السرد لحقيقة المنهج التربوي عند العيساوية قد يصح القول: أن المجتمع المسلم بكل مكونته من عوام ومثقفين ومتعلمين وجماعات إسلامية وغير ذلك، بحاجة حقيقة إلى تربية إسلامية دقيقة وصادقة، تغسل قلوبهم من حب الدنيا والتكالب عليها، ومن حب أنفسهم، وتأخذ بأيديهم إلى الله سبحانه وتعالي، وتروض أروحهم على حب الطاعة، وبغض المعصية، وتحررهم من العبودية للأشخاص والأوهام، وتحقق لهم العبودية الحقيقة بكل معانيها الدقيقة، ولعلهم بعد ذلك يطهرون عقولهم من الشرك، وقلوبهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وأقوالهم من اللغو، وعبادتهم من

الرياء، ومعاملاتهم من الغش، وحياتهم من التناقض، وبعبارة أخرى نحن بحاجة إلى تزكية ربانية حقيقة للنفوس التي لا فلاح لها بغيرها حينها فقط نستطيع العيش في مجتمع سليم ونحقق ونتحقق من قوله - تعالى- **: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا]** [الأعلى : 9] ولا يمكن أن تكون هذه المعاني السامية هدف الصوفي فقط، بل لابد أن تكون هدف كل مسلم يريد التعلق بالله والعمل به وله سبحانه(37)

ثانياً- الأوراد : يتفق جميع الصوفية دون استثناء على أن أورادهم وما صح عندهم من أذكار هي من أهم وسائل التربية في الطريقة الصوفية، وذلك لأن الذكر هو غذاء الأرواح، وسبب راحتها، وسر وصولها، وهو قبل ذلك كله من أعظم القربات، وأفضل الطاعات لله - سبحانه وتعالى - ، ولذلك فقد تظافرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في بيان فضلها وعلو منزلتها عند الله ولا أدل على ذلك من قوله- تعالى- :[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا]** [الأحزاب:41] وكذلك قوله - تعالي- : في موضع آخر[**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ]** [البقرة:152]. وقد بين الله سبحانه أن الذكر يعالج القلوب، ويبعث فيها الطمأنينة، ويساعده على مقاومة الهوى وكبح شرور النفس والدليل على ذلك في قوله – تعالى- : [**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ]** [الرعد:28] ، وهو بعد ذلك سبب في نزول الرحمة وزيادة البركات ودفع البلاء والقنوط والعذاب، وهذا معني قوله - تعالى- : [**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ]** [الأنفال:33]، وقد حث الرسول- صلى الله عليه وسلم - الأمة على الذكر في كثير من أقواله، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر، فقد ورد ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُـــولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : " **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ مَكِّيٌّ: وَأَزْكَاهَا، عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ " قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " ذِكْرُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ** - (38)، لأجل ذلك طلب الشيخ بن عيسى من مريدي طريقته الإكثار من ذكر الله والصلاة عليه والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتلاوة القران الكريم ، والتحلي بأخلاقه، والتفكر فيه وملازمة الأوراد، والمداوة على تلاوة الأحزاب وخصوصاً الحزب المسمى (سبحان الدايم لا يزول) ، وهو توحيد وتسبيح وتوسّـــل إلى الله – تعالى- مقروناً بحزب الفلاح، والأحزاب سالفة الذكر تُعد من أهم أذكار وأحزاب الطريقة العيساوية (39) ، وقبل ذلك على المريد أن " يتوب من جميع الزلات، ويحســـن معاشرة الأهل والأصحاب ويحظر مع إخوانه قراءة الأحزاب ،

ويتقى الله في كل وقته"[40]، ولا بد لمريد الطريقة أن يعلم أنه لا خلاص له من ورطته النفسية والروحية "إلا بالصفاء، الذى يدخل به إلى الحضرة الإلهية القدسية، ولا يكون ذلك إلا بفيض الأنوار من حضرة القدس، وفيض الأنوار أكبر ما يأتي به الذكر، فإنه لايزال العبد يتعهد أوقاته بالذكر، ثم يستريح والأنوار تقدح في قلبه وقت الذكر"[41]، وحقيقة الذكر في الطريقة الصوفية أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر، يعنى "إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله - تعالى- "[42] وهذا لا يتحقق إلا بصفاء النفس وتحريرها من كل قيد؛ لكى تحلق في رحاب تلك الأجواء الروحية، التي تمارسها الطريقة في الزاوية والتي تضيف إلى المريد حالة من التصفية الوجدانية قلّ نظيرها. وبناءً على ما سبق فإن الذكر بالمفهوم السابق يفيد الصفاء والترقي في سلم الوصول، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يضيف حلاوة ونور في القلوب، يعالج أمراضها، ويقيها من وسواسها؛ لأنه أقوى علاج يحقق "حفظ القلب من الوسواس، وترك الميل إلى الناس، والتخلي عن كل قياس، وحسن ملاحظة المعنى"[43]، ولأجل هذا كان الذكر من دعائم السلوك ، لأنه عبادة ملازمة للمريد وغير مؤقتة بل تقتحم جميع الأوقات دون قيد أو شرط، ولا يقف حدها عند اللسان، بل تتعداه لتصل إلى جميع الجوارح وتتفاعل معا لتسقى عطش الروح، وتحقق الغاية العليا منها وهي القرب من الله سبحانه.

ثالثاً ـ الغلو والمخالفات : إن دراسة التصوف الإسلامي عامةً تستوجب منا دون شك أن نرجع بمقالات ونصائح وأقوال شيوخه ورواده إلى أصول الإسلام ذاته عقيدةً وشريعةً، وكما تحددت مسبقاً في المصدرين الكبيرين القرآن والسنة، وما نتـــج من تفاعل المسلمين بهما عبر عصور الإسلام من سلوك روحي يمثل خصيصة دقيقة للصوفية الإسلامية الصحيحة، كتلك التي تتجلي قسماتها الروحية في أعلي صور الكمال من خلال حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - بوصفه المثل الأعلى للكمال الروحي ، ثم في فيوضات هذا الكمال وما درج عليه الصحابة والتابعون فيما بعد ومن مضي في هذا الدرج إلى يومنا هذا من شيوخ الصوفية الحقيقيين ، وفي ضوء هذا المحك نستطيع أن نحدد وعلى وجه الدقة ما يمكن أن يكون مشروعاً من التصوف في دين الإسلام ، ومالا يمكن أن يكون كذلك، وفي ضوء هذا المحك - أيضاً - نستطيع أن نميز في طيات ما كتبه شيوخ التّصوف ما يعد إسلامياً وما ليس كذلك مهما ألبسه بعض المنتسبين إليه من ثوب الإسلام[44] ، وذلك لأن القاعدة الأساسية التي يتفق عليها شيوخ الصوفية قديماً وحديثاً هي اتباع الكتاب والسنة قولاً وعملاً، وكل من خالف هذه القاعدة يعد خارجاً عن دائرة التصوف وبعيداً عنها وإن ادعي عكس ذلك ، وهذا كثير في أقوالهم ونصائحهم ولا أدل على ذلك من قول الشيخ ابن عيسى "كيف تشرق ذات بنور النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولم تفعل ما كانت تفعله الذات الشريفة"[45]؛ ولكن الإنصاف يقتضى القول : أن معظم التجاوزات التي تؤخذ على المنتسبين للصوفية اليوم تأتى من

جانب أتباع بعض الطرق الصوفية ، الذين لم يحرصوا أن يكونـــوا على شاكلة شيوخهم الأقدمين علماً وحالاً رسوخاً في العقيدة وفقهاً في أحكام الدين(46) ، ومن الإنصاف كذلك أن معظم المآخذ على الطرق الصوفية عموماً وعلى العيساوية خصوصاً تكمن في تقديس الشيوخ ، وشيوع الكرامات بين أتباعها، والتعلق بها، والاعتماد على الطقوس دون الغوص في جوهر الطريقة، زد على ذلك عزوف بعض الزوايا عن تأدية دورها في نشر الوسطية والدعوة إلى الله سبحانه ، ولعل هذه المآخذ بعد ذلك قد تسببت في كثير من الاتهامات التي يكيلها البعض للتصوف بقصد أو عن غير قصد، وهي في الحقيقة لا تعبر عن رؤية شيوخ الطريقة المؤسسين لتلك المناهج التربوية الفريدة.

وخلاصة ما سبق من هذه المخالفات تكشف لنا براءتهم مما لحق بطريق كل واحد منهم ، فقد كانوا متبعين لا مبتدعين كما مـــر معنا من خلال أقوالهم ونصائحهم ، وأن ما علق بالطرق من مخالفات ناتج عن بعض أتباعهم والمنتسبين إليهم لا غير.

النتائـــــــــج:

وبهذا ولله الحمد والمنة أكون قد ختمت ما أردت وأتممت ما قصدت ، وقد خلصت إلى النتائج الآتية:

1ـ أظهرت الدراسة أن الطريقة الصوفية العيساوية تستمد أصولها وتشيد دعائمها وأركانها على ما ورد في الكتاب والسنة النبوية الشريفة تحقيقاً وتطبيقاً وعمقاً في الفهم وصلابةً وجدية في العمل.

2ـ استنتج الباحث أن مناهج التربية الروحية عند العيساوية لا تخرج في عمومها عن أصول التربية الإسلامية الصحيحة.

3ـ أظهرت الدراسة أن مفهوم الذكر عند العيساوية في ليبيا يتخطى حدود اللسان ليصل إلى أعماق القلب ومنه إلى الجوارح لتحقيق الغالية العليا منه في ترويض القلوب وإصلاح الخواطر والنهوض بالضمير، وما يعكسه بعد ذلك من أثر قوى في تربية المسلم وإرشاده ، وما له من مردود إيجابي واضح على مستوى الفرد والمجتمع.

4ـ استنتج الباحث أن للطريقة العيساوية دور في النهوض بالمجتمع الليبي والمحافظة على هويته الدينية من خلال ما تطرحه من وسائل روحية وتربوية تحقق صحة العلاقة بين العبد والمعبود سبحانه وما تتركه تلك العلاقة من مردود إيجابي على المجتمع المسلم

5ـ أظهرت الدّراسة أن كل ما علق بالطريقة العيساوية من مخالفات هو ناتـــج من بعض أتباعها نتيجة الجهل بالطريق وأصولها، ولا يعبّر عن رؤية مؤسسها وشيوخها الأوائل.

الهوامـــــــــــش :

(1) أنظر/ السراري (طارق) مختصر الغزال في ذكر مناقب سيدى محمد بن عيسى فحل الرجال ، نشر: مكتبة الجندي، ط 1سنة 2009 م، ص 13 ،14.
(2) أنظر/ القطعاني (أحمد) أعلام الطرقة العيساوية ، نشر: دار بشري وكلثوم، ط 1،سنة 2019م، ص 13، 14 .
(3) أنظر/ الكيلاني (ميعاد شرف الدين) الطريقة القادرية أصولها وقواعدها، نشر: كتاب ناشرون، بيروت لبنان، ط1 سنة 2014م، ص 28.
(4) أنظر/التفتازاني (د. أبو الوفا): مدخل إلى التصوف الإسلامي، نشر: دار الثقافة، القاهرة مصر، ط 3 سنة، 1979م، ص15.
(5) أنظر/ الزركلي (خير الدين) الأعلام نشر: دار لعلم للملايين بيرو ت لبنان ط 16 سنة 2005م 6 /151، وأنظر/ القطعاني، أعلام الطريقة العيساوية، مرجع سابق، ص 15.
(6) المحجوبي (مصطفى بن رجب) البدر الساعي في مناقب العارف بالله الشيخ مختار بن محمود السباعي ، نشر: دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا ط1 سنة 2008م، ص 15.
(7) المسعودي،(المسعودي) نبراس الإيناس على حزب غوث مكناس ، تحقيق محمد سعيد المسعودي، نشر: دار ابن كثير، طرابلس ليبيا ، ط1 سنة 2010 م، ص 16.
(8) أنظر/ النجار(عامر) الطرق الصوفية في مصر، نشر: دار المعارف، د.ت، ص20.
(9) أنظر/بالجن (د. مقداد): فلسفة الحياة الروحية منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة الطرق الصوفية، نشر: دار عالم الكتب، الرياض السعودية، ط3 سنة 1410 هـ، 1989م، ص 79.
(10) أنظر/النجار: الطرق الصوفية في مصر، مرجع سابق، ص 18.
()11 القاشاني (كمال الدين عبد الرزاق) اصطلاحات الصوفية، تحقيق: د. محمد كمال جعفر، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، ط1 سنة 1981م، ص190.
(12) أنظر/ درنيقة (د. محمد أحمد) الطريقة النقشبندية وأعلامها، نشر: جردس برس، د.ت، ص25.
(13) أنظر/ الشعراني (عبد الوهاب) اليواقيت والجواهر في عقيدة الأكابر، تحقيق: عبد الوارث محمد على، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 سنة 1998م، ص 253، 254.
(14) الحسيني(جميل) التشرف بذكر أهل التصوف، نشر: دار المشاريع بيروت، لبنان، ط3، سنة 2008م ص27.
(15) الرفاعي (أحمد) البرهان المؤيد، تحقيق: رجائي محمد تميم الرفاعي، نشر: دار الحسين الإسلامية القاهرة مصر، د.ت ص 43، وأنظر: الحسيني، التشرف بذكر أهل التصوف، مرجع سابق، ص27.
(16) أنظر/ الجيلاني (عبد القادر) الغنية، نشر: شركة القدس للتصدير، القاهرة مصر، ط1 2006م، ص55.
(17) الأسمر (عبد السلام) الوصية الكبرى، نشر: مكتبة النجاح طرابلس ليبا، ط1 سنة 1976م، ص4
(18) القطعانى (أحمد) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، نشر: مكتبة النجاح طرابلس ليبيا، ط2، سنة 2000م ص 12، 13 وأنظر/ أعلام الطرقة العيساوية، أحمد القطعاني، مرجع سابق، ص4
(19) ابن عجيبة (أبو العباس أحمد): ايقاظ الهمم في شرح الحكم، تحقيق: محمد عزت، نشر: المكتبة التوفيقية القاهرة، مصر د.ت، ص 298.
(20) أنظر/ البوطي (د. محمد سعيد رمضان) من الفكر والقلب فصول من النقد في العلوم والاجتماع والنقد، نشر: دار الفارابي دمشق سوريا ط سنة 2007م، ص 124.
(21) أنظر/ زروق (أحمد بن أحمد البرنسي) قواعد التصوف، شرح وتحليل: طه الدسوقي حبيشي، نشر: مكتبة الامان القاهرة، مصر ط1 سنة 2013م، ص 55.
(22) أنظر/ زيدان (يوسف) الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، نشر: دار الجبل بيروت ط 1، سنة1991، ص 10.
(23) أعلام الطريقة العيساوية:، أحمد القطعاني، مرجع سابق ، ص 46.

(24) أنظر/ السهروردي: عوارف المعارف: ، تحقيق د. عبدالحليم محمود ، د. محمود بن الشريف، نشر: مكتبة الإيمان، القاهرة مصر، ط1 سنة 1426ه، 2005م ص 460 .
(25) القطعاني، أعلام الطريقة العيساوية:،،مرجع سابق ص46
(26) أنظر/ القطعاني (أحمد) الشيخ الكامل محمد بن عيسى ، نشر: دار الكتاب الليبي ، بنغازي ليبيا، ط2 سنة 1999 ص 140
(27) القطعاني أعلام الطريقة العيساوية: ،مرجع سابق ص 45.
(28) القطعاني أعلام الطريقة العيساوية، ،مرجع سابق، ص 51
(29) الحميري (ابن الصباغ)، درة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ومقامات ونسب وكرامات وأذكار ودعوات أبي الحسن الشاذلي، نشر: مكتبة الفجر الجديد القاهرة مصر، د.ت، ص 116.
(30) أنظر / القطعاني ،علام الطريقة العيساوية، مرجع سابق، ص 51 ، 52.
(31) أنظر/ القطعاني، الشيخ الكامل محمد بن عيسى، مرجع سابق ، ص140.
(32)المكي (أبو طالب) قوت القلوب، تحقيق: عبد الحفيظ فرغلي، نشر مطبعة الأنوار المحمدية، د.ت .ج 72/2.
(33) الطوسي (أبو نصر عبد الله السراج): اللمع في تاريخ التصوف، تحقيق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2 سنة 2007م، ص80، 81؛ القشيري (أبو القاسم)الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود الشريف، نشر مؤسسة دار الشعب مصر، ط1 سنة 1409ه 1989م .، ص80.
(34) الغزالي،(ابو حامد) إحياء علوم الدين، نشر دار البيان للتراث، بيروت لبنان، د.ت. 3 / 53.
(35) أنظر/ الصيادي (أبو الهدي محمد بن حسن) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1 سنة 1420ه، 1999م ص150.
(36)، السلمى (أبو عبد الرحمن) طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، نشر دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ط1 سنة 1424ه، 2003م. ،ص132، وأنظر/ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن)، صفة الصفوة، تحقيق: طارق محمد عبد المنعم، دار أبن خلدون، الإسكندرية مصر، د.ت، 1/ 445 ، وأنظر/ اليافعي (أبو محمد):نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية (الملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد) تحقيق: إبراهيم عوض، نشر مطبعة مصطفى البابي، القاهرة مصر، ط2 سنة 1410ه، 1990م، ص 364.
(37) أنظر/ القرضاوي (د. يوسف)الحياة الربانية والعلم ، نشر: مكتبة وهبه القاهرة ط 1سنة 1995، ص18.

(38) أخرجه مالك في الموطأ 1/ 295، برقم 716 ،الموطأ" نشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات ط1 1425هـ - 2004م و أحمد في مسنده 9 /5079 برقم 22116 جمعية المكنز الإسلامي، دار المنهاج ط1 سنة 2010م.
(39) أنظر/ القطعاني، الشيخ الكامل محمد بن عيسى، مرجع سابق، ص 166.
(40) القطعاني، الشيخ الكامل محمد بن عيسى، مرجع سابق 167
(41) السائحي (محمد بن المشري) الجامع لدرر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم، تحقيق: محمد الراضي كنون، نشر: دار الأمان، الرباط المملكة المغربية د.ت ص 683.
(42) الكلاباذى (أبو بكر) التعرف على مذهب أهل التصوف ،تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 سنة 1413ه، 1993م، ص 122 .
(43) الصيادي، قلادة الجواهر، مصدر سابق، ص 154 .
(44) انظر/ الجزار(د. أحمد محمود) دراسات في التصوف الإسلامي نشر: دار الوفاء لدينا الإسكندرية مصر ط1 سنة 2015م، ص 8 .
(45) القطعاني، الشيخ الكامل محمد بن عيسى، مرجع سابق، ص 5.
(46) أنظر الجزار / دراسات في التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص 10.